فضيلة الرجوع إلى الحق

إن الرجوع إلى الحق فضيلة عظيمة، وبقدر ما يعرف الإنسان قدر نفسه، فإن استجابته للحق تكون كبيرة، وبقدر ما يعرف مدى تقصيره، فإن مرات رجوعه إلى الحق تكون كثيرة.

وليُعْلم أن مرض الكبر الذي يدخل في القلوب، هو الذي يمنع الإنسان من قبول الحق، فمن عالج قلبه وأصلح سريرته فهو من أهل الحق المهتدين إليه بإذن الله تعالى، ومن تمادى في غيّه وأرخى العنان لنفسه الأمارة بالسوء، فإنه لا شك سيدفع الحق أو يبطله أو يضلله.

ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: "الكبر بطر الحق وغمط الناس".

قال ابن الأثير في النهاية: ("بطر الحق" هو أن يجعل ما جعله الله حقا من توحيده وعبادته باطلا. وقيل هو أن يتجبر عند الحق فلا يراه حقا. وقيل هو أن يتكبر عن الحق فلا يقبله) اهـ.

ويقول القاضي عياض-رحمه الله-في إكمال المعلم: (ومعنى " بَطر الحق ": إبطاله، مأخوذ من قول العرب: ذهب دمه بَطْراً وبَطَراً، أي: باطلاً.

قال الهروي: قال الأصمعي: البَطرُ: الحيْرَة، ومعناه: أن يتحير عن الحق فلا يراه حقاً. وقال الزجاج: البَطرُ أن يتكبر عند الحق فلا يقبله) اهـ.

وقال النووي-رحمه الله-في شرحه على مسلم: (أما بطر الحق فهو دفعه وإنكاره ترفعا وتجبرا) اهـ

ويقول ابن رجب الحنبلي رحمه الله في شرح الحديث: ("بطر الحق" يعني: التكبر عن قبول الحق والانقياد له) اهـ

ويقول: (بطر الحق وهو التكبر عليه والامتناع من قبوله كبرا إذا خالف هواه) اهـ

ويقول: (ومن هنا قال بعض السلف التواضع أن تقبل الحق من كل من جاء به وإن كان صغيرا، فمن قبل الحق ممن جاء به سواء كان صغيرا أو كبيرا وسواء كان يحبه أو لا يحبه فهو متواضع، ومن أبي قبول الحق تعاظما عليه فهو متكبر) اهـ.

ويضاف إلى ذلك أن يقال، إن الكبر هو أول ذنب عصى اللهَ به إبليس.

قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}.

قال الإمام الطبري رحمه الله في تفسير الآية: (وهذا، وإن كان من الله جل ثناؤه خبرًا عن إبليس، فإنه تقريعٌ لضُربائه من خلق الله الذين يتكبرون عن الخضوع لأمر الله، والانقيادِ لطاعته فيما أمرهم به وفيما نهاهم عنه، والتسليم له فيما أوجب لبعضهم على بعض من الحق).

فهذا حال أتباع إبليس وضربائه.

أما أتباع الحق سبحانه، فإنهم يقبلون الحق ولا يتكبرون عنه ولا يجحدونه ولا يدفعونه، ولكنهم يعملون به ويدافعون عنه وينقادون له ويحبونه، ومن أخطأ منهم رجع إلى الحق صاغرًا ذليلًا، واعترف بخطئه ولم يتمادَ فيه زمنًا طويلًا.

وإليك بعض أخبارهم، لتكون من جملة المقتدين بهم.

فهذا الفاروق عمر رضي الله عنه يقول: " لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقية، فمن زاد ألقيت زيادته في بيت المال"، فقامت امرأة من صف النساء طويلة فيها فطس فقالت: "ما ذلك لك"، قال: "ولم؟" قالت: "لأن الله عز وجل يقول: {وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا}، فقال عمر: "امرأة أصابت ورجل أخطأ "

وروى ابن أبي شيبة في مصنفه: أن امرأة غاب عنها زوجها، ثم جاء وهي حامل، فرفعها إلى عمر، فأمر برجمها، فقال معاذ: "إن يكن لك عليها سبيل، فلا سبيل لك على ما في بطنها"، فقال عمر: "احبسوها حتى تضع"، فوضعت غلاما له ثنيتان، فلما رآه أبوه، قال: "ابني ابني"، فبلغ ذلك عمر، فقال: "عجزت النساء أن تلدن مثل معاذ، لولا معاذ هلك عمر".

وعن محمد بن كعب القرظي قال: سأل رجل عليا رضي الله عنه عن مسألة، فقال فيها، فقال الرجل: "ليس كذلك يا أمير المؤمنين ولكن كذا وكذا"، فقال علي رضي الله عنه: "أصبت وأخطأت وفوق كل ذي علم عليم".

وعن ابن أبي حسين قال: اختلف ابن عباس وزيد بن ثابت في الحائض تنفر فقال زيد: "لا تنفر حتى يكون آخر عهدها بالبيت الطواف"، وقال ابن عباس: "إذا طافت طواف الإفاضة فلها أن تنفر ولا تودع البيت" فرد عليه زيد قوله، فقال ابن عباس لزيد: "سل نساءك أم سليم وصواحباتها، فذهب زيد فسألهن ثم جاء وهو يضحك فقال: القول ما قلت ".

وعن العباس بن الوليد بن مزيد، قال: سمعت أبي وعقبة بن علقمة يذكران، قالا: "ما رأينا أحداً أسرع رجوعاً إلى الحق إذا سمعه من الأوزاعي".

وعن عبيد الله بن جرير قال: سمعت علي بن المديني يقول: قال عبد الرحمن بن مهدي: ذاكرت عبيد الله بن الحسن القاضي بحديث وهو يومئذ قاض فخالفني فيه فدخلت عليه وعنده الناس بسماطين فقال لي: "ذلك الحديث كما قلت أنت، وأرجع أنا صاغرا".

وعن عبد الرحمن بن مهدي قال: كنا في جنازة فيها عبيد الله بن الحسن العنبري وهو على القضاء، فلما وضع السرير: جلس وجلس الناس حوله، قال: فسُئلَ عن مسألة: فغلط فيها.

فقلت: "أصلحك الله، القول في هذه المسألة: كذا وكذا إلا أني لم أرد هذه إنما أردت أن أرفعك إلى ما هو أكبر منها".

فأطرق ساعة ثم رفع رأسه، فقال: "إذاً: أرجع وأنا صاغر، إذاً: أرجع وأنا صاغر، لأن أكون ذنباً في الحق: أحب إلي من أن أكون رأساً في الباطل".

وعنه أيضًا: دخلت على محمد بن الحسن صاحب الرأي فرأيت عنده كتابا موضوعا، فأخذته، ونظرت فيه فإذا هو قد أخطأ، وقاس على الخطأ فقلت: "ما هذا؟ " فقال: "حديث أبي خلدة، عن أبي العالية، في الدود يخرج من الدبر"، وقد تأوله على غير تأويله، وقاس عليه فقلت: "هذا ليس هكذا"، قال: "كيف هو؟" فأخبرته، فقال: "صدقت"، ودعا بمقراض فقرض من كتابه كذا وكذا ورقة.

وعن أبي محمد قاسم بن أصبغ قال: لما رحلت إلى المشرق ونزلت القيروان فأخذت عن بكر بن حماد حديث مسدد، ثم رحلت إلى بغداد ولقيت الناس، فلما انصرفت عدت إليه لتمام حديث مسدد، فقرأت عليه فيه يوما حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه قدم عليه قوم من مضر (مجتابي النمار)، فقال: "إنما هو (مجتابي الثمار)"، فقلت له: "إنما هو (مجتابي النمار)، هكذا قرأت على كل من قرأته عليه بالأندلس وبالعراق" فقال لي: "بدخولك العراق تعارضنا وتفخر علينا أو نحو هذا"، ثم قال: "قم بنا إلى ذلك الشيخ" لشيخ كان في المسجد، "فإن له بمثل هذا علما" فقمنا إليه وسألناه عن ذلك، فقال: "إنما هو (مجتابي النمار) كما قلت وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشققة جيوبهم أمامهم، و(النمار) جمع نمرة"، فقال بكر بن حماد وأخذ بأنفه: "رغم أنفي للحق رغم أنفي للحق، وانصرف".

ويقول ابن حبان رحمه الله في ترجمته لزُفَر: (زفر بن الهذيل القياس أبو الهذيل من متورعة الفقهاء لم يسلك سبيل صاحبيه في الروايات وكان إذا لاح له الحق يرجع إليه من غير أن يتمادى في باطله).

وغير ذلك الكثير.

ومن صور الرجوع إلى الحق، ما قامت به الدولة الإسلامية من إلغاء العمل بالتعميم المعنون بالآية (ليهلك من هلك عن بينة)، وذلك لما احتواه من أخطاء علمية ومنهجية، وكذلك إعادة كتابي التقريرات المفيدة في أهم أبواب العقيدة وتوعية الرعية بالسياسة الشرعية مع بيان عدم احتوائهما على ما يخالف عقيدة أهل السنة والجماعة، وهذا مما يحمد للدولة الإسلامية أنها رجاعة للحق وقافة عند كتاب الله تعالى، وإنها لتلتمس من جراء ذلك النصر والتمكين من مولاها الكريم.

وقد قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ}.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.